الحضارة الفينيقية

وتأثيرها في التمدن القديم

علاقة فينيقية بمصر

— ٢ —

آثارها بحوادث التاريخ من الفتح العربي الى العهد الحديث

الفتح العربي

اذا صرفنا النظر عن العصر البيزنطي ولم نتبسط في الكلام عنهُ لخلوه من ادلة تاريخية بارزة على اشتراك مصر وسورية في امر هام او تعاونهما على درء شر مستطير وما شاكل ذلك من وجوه الاتحاد والتآزر فلا يسعنا الا الاعتراف بما قام بينهما من العلاقات الوثيقة في عصر العرب. فان التاريخ طافح بالشواهد والبينات على ان هذا العصر اعاد العلاقات بين البلادين الى احسن ما كانت عليه في عهد الفراعنة. ذلك انهُ لما تقلص ظل الدولة البيزنطية او الدولة الشرقية من سورية وافضت السلطة فيها الى العرب المسلمين في القرن السابع للمسيح عادت صلات المودة فاستحكمت بين الديار الشامية والمصرية باتصال سيادة الفاتحين الى مصر على يد عمرو بن العاص[1]. وقد كان عصر العرب في القطرين في ولاية بني امية وبني العباس عصر فلاح واقبال ولو انهُ لم يخل من شوائب شوهت شيئاً من محاسنه. وبلغ الرقي الادبي العلمي في سورية شأواً بعيداً في أيام هارون الرشيد أعظم خلفاء العباسيين وانتشرت دور العلم ومعاهد التربية في ولايته انتشاراً كبيراً ولاسيما في دمشق، ورسخت آداب الفاتحين والعلوم التي تلقوها من علماء السريان واليونان في القطرين السوري والمصري وتأصلت عاداتهم واخلاقهم وتقاليدهم عند السوريين والمصريين على السواء وما زال هذا شأنها الى اليوم. فانك ترى الى الآن في اخلاق الشعبين وعاداتهما وعلاقات الافراد والجماعات احدهم بالآخر مسحة عربية بحت لا تكاد تختلف في شيء عنها في أبان عصر العرب مع ان الدول الفاتحة التي تعاقبت على حكم البلادين بعد الفتح العربي ولاسيما الاتراك على اختلاف دولهم وتفاوت نزعاتهم السياسية واساليبهم الاستعمارية أفرغت جهدها في التمتع بجميع حقوق الفتح على سؤال يؤدي حتماً إلى حرمان البلادين من طابعها العربي

---

(١) أنشأنا حديثاً رواية تمثيلية بسطنا فيها حكاية فتح العرب لمصر على أسلوب جديد توخينا فيه اظهار الفضائل العربية التي تجلت على أتمها في حكم العرب للممالك الشرقية

ولما نقل مركز الخلافة الى بغداد قسم الديار الشامية فئتين شديدة تلتها ارمة ضويلة الأجل انفصلت عن استقلال امرء البلاد وغزاتها باحكم ولم يبق للخلافة رأي في شؤون بلادهم السياسية سلموا بحكمون بقاءها بلا خراج غير الطاعة الاسمية . وأصبحت سورية هي جراء هذا الانقلاب كريشة في مهب الريح ثارة تنضم إلى مصر كولاية خاصة بها وطوراً يقوم على حكومتها ملوك اكفاء يستقلون في شؤونها

عصر الدول الثانوية

وفي مقدمة الثائرين الذين اغتصبوا ولاية الديار الشامية أثر تلك الفتن احمد بن طولون صاحب مصر في القرن التاسع . ثم قامت دولة الاخشيديين في القرن العاشر . ثم دولة بني حمدان في الموصل . ثم دولة القرامطة فعاثت في البلاد فساداً . ثم قامت المنازعات بين امراء سورية وعمالها على السيادة فيها فتحمل الروم الغرصة واسترجعوها . ثم قامت دولة الفاطميين في مصر في منتصف القرن الرابع للهجرة واستولت على ديار الشام وعادت العلاقات السياسية بين مصر وسورية الى ما كانت عليه في العصور السابقة . وقام الحاكم بامر الله ينشر دعوته في الديار فنشبت في البلاد ثورة فكرية خطيرة فتزعزعت صفحة الفاطميين . ثم قامت دولة الاتراك السلجوقيين في القرن الحادي عشر فكتسحت سورية وعادت الفتن والمنازعات فمزقتها وظهرت دولة بني عنبل المروانيين في الشمال ثم عصابات الصفاحين المعروفين بالاسبتية فعاثت في البلاد كثيراً وانتشت على يدها دولة السلاجقة إلى قسمين قسم في حلب وقسم في دمشق

عصر الصليبيين

وفي عصر الصليبيين تجددت العلاقات بين مصر وسورية . وحاول بعض ملوك الافرنج فتح مصر على عهد الملك الصالح بن الكامل وخلفائه ولكنهم لم يفوزوا على رسيخ قدمهم فيها واكرهوا على الجلاء عنها بعد وقوع لويس التاسع ملك فرنسا في الاسر . ثم قام نور الدين ارسلان صاحب دمشق فتح مصر على يد قائده الناصر صلاح الدين الايوبي الكردي في أواخر القرن الثاني عشر وقضى على دولة الفاطميين منها . ثم استبد صلاح الدين بالحكم وفتح ديار الشام وواقع الافرنج وكسرهم في معارك كثيرة واليه يرجع معظم الفضل في تقويض اركان سلطانهم في المشرق

وفي اواسط القرن الثالث عشر ظهر أهل خوارزم وهم من القبائل التي فرت من أمام جنكزخان في زحفه على بلاد الشام وفتحه لها واستقروا في شمال سوريا بايعاز المصريين لانجادهم حين الحاجة . ثم تفاقم امرهم واجتاحوا الديار السورية حتى بلغوا أورشليم وغلبوا الافرنج على أمرهم وحصروهم في منطقة ضيقة في بلاد الجنوب

دول المماليك

ثم قامت دولة المماليك البحرية أو الكردية في منتصف القرن الثالث عشر واستولت على مصر وسورية وقضت على دولة الأيوبيين . وفي اثناء ذلك ظهرت دولة التتر أو المغول فاستحوذت على سورية وطردت المماليك منها ثم عاد المماليك فاسترجعوها على يد الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري الذي دانت لصولجانه بلاد الشام بأسرها . ثم استردّ المغول سورية في آخر القرن الثالث عشر في عهد تيمور لنك الذي غزا دمشق وأجلى صناعها ولاسيما صناع الاسلحة الدمشقية المشهورة إلى بلاده (سنة ١٤٠٠ م) . ثم قامت دولة الجراكسة المعروفة بدولة المماليك البرجية على حكم مصر وسورية في أواخر القرن الرابع عشر وظلتا في حيازتها إلى الربع الأول من القرن السادس عشر حيث أفضى تابع آل عثمان في الدولة التركية إلى السلطان سليم الأول الفاتح الشهير

الفتح العثماني

ما كاد السلطان سليم يفرغ من قتال الفرس ويستتب له الامر في ولاياته البقاعية والاوربية حتى طمحت نفسهُ إلى فتح الديار الشامية والمصرية وكان ما آل اليهِ هذان القطران الشقيقان في عهد المماليك من الضعف والانحطاط باعثاً له على استصغار شأنهما والتعجيل في اجتياحهما ولا سيما انهُ شعر بعدم انتظام أمور المماليك فيهما وعجزهم عن الاحتفاظ بسيادتهم فيهما فزحف على سورية بجيش عظيم (١٥١٦ — ١٥١٧) واكتسحها وتابع زحفه إلى مصر فتملكها بعد أن ظفر بجيش الجراكسة وتكلل به واستأسر الملك طومان باي وشنقه وبهذا انقرضت دولة المماليك. على أن الغازي ترك لامراء سوريا شيئاً من الاستقلال وأقر أكثرهم في ولاياتهم وانطاعاتهم بعد ان فرض عليهم جزية قليلة وترك للمماليك في مصر بيكاتهم الاربعة والعشرين وهي الاقطاعات التي كانوا يحكمونها بأمر ملوكهم وأطلق عليها اسم سناجق مكتفياً بإبطال سيادتهم العليا في وادي النيل وتخلى له المتوكل على الله آخر الخلفاء العباسيين في مصر عن الخلافة العربية وبايعهُ شريف مكة وبذلك دانت الامة العربية لصولجانه

وعلى الاجمال فان الفترة التي انقضت بين الفتح العربي والفتح العثماني في الديار المصرية والشامية نغصت عيش الشعبين المصري والسوري لما توالى عليهما فيها من الرزايا والنكبات التي صرفت الناس عن أرزاقهم الى الاحتيال على تخفيف عبء المظالم التي حلت بهم بالتزلف الى الحكام ووقف كل ما هو عزيز لديهم من شرف وروح ومال على مشيئتهم وأهوائهم فكانت هذه الفترة أكثر العصور المظلمة شؤماً على البلادين

وقد ظهر الاتراك العثمانيون عند استيلائهم على الديار الشامية والمصرية بمظهر الخلفاء الاولين فأجروا العدل بين الناس وأقاموا دعائم سلطانهم على اساس الحق والانصاف فأنقذوا البلاد من عثرتها وانتشلوها من وهدة الخراب والانحطاط التي كانت دول الاكراد والمماليك والمغول قذفت بها اليها . لكنهم بعد انقضاء زمن الفتح وانبساط رواق سلطانهم في هاتيك الديار ظهر عجزهم عن مجاراة الخلفاء الاولين وفقدوا تلك الاخلاق السامية التي تخلقوا بها عند الفتح لانهم لم يألفوها في قصور السلاطين الذين تقدموهم وشادوا مجد دولتهم على أسنة الرماح وشفار السيوف ذاهلين عما ينبغي لارباب التيجان ان يتحلوا به من الفضائل الرائعة ليتمكنوا من اقامة أركان الدولة على اساس صحيح لا تقوى عليه صروف الدهر وكوارث الايام . فجار اولئك السلاطين وجار عمالهم في القطرين الشقيقين وهم في شغل عنهم يتلاهون بهرجة الملك فرجعا القهقرى وغرقا في لجة عميقة من الفشل والشقاء . وحال اعتساف الحكام ووشاياتهم بعضهم بالبعض الآخر وتحاسد الزعماء وتنابذهم وتنافرهم دون سد ثلمتها واصلاح ما فسد من امورها .

وفي ايام السلطان سليم الثالث حمل نابليون بونابرت على مصر ثم اختارها الى سورية سنة ١٧٩٩ فاخضع احمد الجزار والي عكاء وفتح بعض مدن فلسطين ثم قفل راجعاً الى مصر فعرفنا وعاقد الاتراك على السلم مكرهاً .

عزم ابراهيم باشا في سورية

وفي ايام السلطان محمود (١٨٠٨ — ١٨٣٩) انفرجت الازمة السياسية في البلاد وشعر الاهلون في مصر وسورية بشيء من اليسر والهناء . غير ان ظهور الوهابيين في جزيرة العرب افسد الامر على البلاد . وكان الحكم في مصر قضى الى محمد علي بمرافقة الدولة العثمانية وكان هذا الفاتح العظيم منذ ما تبوأ عرش الامارة المصرية يرمي الى الترسم في الملك وانشاء سلطنة واسعة الاطراف تليق بعظمته ولم تر الدولة اقدر منه على قصد شوكة الوهابيين لحقق ظنها به وقضى على هؤلاء القوم قضاء مبرماً . وحدث ان عبدالله باشا بن احمد الجزار والي عكاء خرج عن طاعة الدولة فعهدت الى محمد علي في تأديبه واعادته الى طاعتها فارسل ابنه ابرهيم باشا الى عكاء سنة ١٨٣١ فحاصرها وفتحها بمساعدة الامير بشير شهاب الكبير حاكم لبنان مع رجاله اللبنانيين وكأنما صاحب معمر امير لبنان بان خوله الحق في تسمية الحكام المحليين في جميع انحاء سورية ولبنان ، ولم يقتصر الفاتح المصري على اخضاع العاصي بل اوغل بجنده في البلاد الشامية واستولى على دمشق وصادق اللبنانيين فكانوا اعواناً له على الاتراك ردحاً من الزمن عملاً بالاتفاق السري الذي عقد بين والده والامير بشير يوم زاره في مصر . ثم انقلب فريق من اللبنانيين

عليه لعدة اسباب اهمها اقدامه على نزع سلاحهم وارهاقهم بالضرائب فقاتلهم واوغل في بلادهم ثم سار الى حمص وبيلان وافتتحها . وبعد سنة واحدة لاجتيازه حدود مصر دخلت بلاد الشام باسرها في حيازته واقر حكومة والده فيها واستأنف الزحف على الاستانة لفتحها . فاشفقت اوربا من بطشه على سلامة السلطنة واختلال التوازن الدولي فاتفقت انجلترا والنمسا وبروسيا وروسيا على اخراجه عنوة من ارض الدولة . وبعد ان امنت الدول جانب فرنسا التي كانت تؤيد امير مصر ارسلت الى سورية حملة دولية مختلطة غلبته على امره بمساعدة ثوار لبنان . وفي استيلاء الامير البنيه الانجليزي على حصن عكاء تمّ جلاء الجند المصري عن ديار الشام على اسلوب فني مدهش اعجب به اعظم رجال الحرب في اوربا ورجوعها الى الدولة العثمانية بعد ان قامت مصر على حكمها ثمانية اعوام

ولقد اشتهرت حكومة ابرهيم باشا في سورية ولبنان بالعدل والانصاف . وما زال السوريون واللبنانيون الى اليوم يتناقلون اخبار هذا الفاتح العظيم ويتحدثون عما تجلى في بلادهم من آيات عدله وشجاعته ومروءته . وهم مجمعون على انه فاتح عظيم ومن اكبر رجال القرن الثامن عشر

بعد فتنة ١٨٦٠

بعد الفتنة التي اثارها رجال الدولة العثمانية سنة ١٨٦٠ في لبنان وسورية تطرق الضعف الى البلاد الشامية فهجرها كثيرون من اهلها الى الخارج التماساً للحرية والهناء . وادرك الاهلون ما هم مستهدفون له من الاخطار في قعودهم عن الاخذ باسباب الرقي الصحيح وكان ان اقبلت على البلاد الرسالات الاوربية الدينية فانشأت مدارس كثيرة ونشط الاهلون من عقالهم ونسجوا على منوالها فاكثروا من دور العلم . وما هي الا فترة من الزمن حتى غصت البلاد بالمتعلمين من ابنائها ولا سيما لبنان حيث استقر اكثر الرسالات فقصد فريق كبير منهم الى الديار المصرية في مدات متقاطعة فاختصتهم الاسرة العلوية الشريفة بانتفائها السامي وقربت نوابغهم ونشطت علماءهم وكتابهم فكانوا من اعظم دعائم الحركة الفكرية في وادي النيل ولم تدخر وسيلة لمساعدتهم على تعزيز مقامهم في هذه البلاد حاذية حذو مؤسسها العظيم الذي كان اول من فكر في اتخاذ اللبنانيين وبعض السوريين عوناً لاخوانهم المصريين وشركاء لهم في تأسيس نهضة مصر الحديثة على قاعدة تبادل المنفعة بين القطرين الشقيقين . وبذلك استطاع هؤلاء المهاجرون ان يلتئموا في وادي النيل وحدة قومية تغبطهم عليها سائر الجاليات غربية كانت او شرقية وان يعيشوا مع اخوانهم المصريين اشقاء متآزرين في السراء والضراء

الزيتون

بولس مسعد